٣٠٩٥٦

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الادارة الدكتور محسن خليل الموسوي

دار الحرية

المجلد التاسع عشر
ربيع ١٩٩٠
العدد الأول

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام

www.dorat-ghawas.com

المحتوى

البحوث والدراسات

١ ـ الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد ..... د. عادل سليمان ٥ ـ ٢٠

٢ ـ قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) لابن طباطبا ..... طراد الكبيسي ٢١ ـ ٢٧

٣ ـ الاصول الاكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية ..... د. صبيح مذلول ٢٨ ـ ٣٥

٤ ـ الغزالي من الاكاديمية الانسايكلوبيدية ..... مدني صالح ٣٦ ـ ٤١

٥ ـ الخط والريازة في العمارة العربية الاسلامية ..... محمود حمدي ٤٢ ـ ٤٧

٦ ـ جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي ..... د. نافع توفيق العبود ٤٨ ـ ٥٥

٧ ـ كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقي ..... د. ناجي التكريتي ٥٦ ـ ٦٩

٨ ـ الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ ..... د. جليل ابو الحب ٧٠ ـ ٧٦

٩ ـ المنسوجات والسجاجيد العربية الاسلامية ..... د. صلاح حسين العبيدي ٧٧ ـ ٨٤

١٠ ـ الشعراء السفراء في عصر ما قبل الاسلام ..... احمد اسماعيل النعيمي ٨٥ ـ ٩٩

النصوص المحققة:

١١ ـ اعلام النساء في الاندلس من كتاب التكملة لابن الابار ..... د. منجد مصطفى بهجت ١٠٠ ـ ١٢٤

١٢ ـ مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب ـ القسم السابع والاخير ..... د. حاتم صالح الضامن ١٢٥ ـ ١٥٥

١٣ ـ رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ..... هلال ناجي ١٥٦ ـ ١٧٠

١٤ ـ يحيى بن ماسويه في الجنين وكونه في الرحم ..... محمود الحاج قاسم ١٧١ ـ ١٧٣

١٥ ـ أنشاد النابغة امام النبي (ﷺ) ..... د. مخيمر صالح ١٧٨ ـ ١٨٣

١٦ ـ الكتاب ـ الكتاب سيبويه ـ مقدمة الكتاب ..... د. محمد كاظم البكاء ١٨٤ ـ ٢٠٦

الفهارس والبيليوغرافيات

١٧ ـ الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ..... د. رزوق فرج رزوق ٢٠٧ ـ ٢٢٦

١٨ ـ مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية ..... د. احمد خان ٢٢٧ ـ ٢٤٣

ندوات

١٩ ـ عبد الحق فاضل ـ الباحث اللغوي ..... د. محمد الطوكي ٢٤٤ ـ ٢٤٩

رأي

٢٠ ـ اللام المفخمة فونيماً ..... سعيد الغانمي ٢٥٠ ـ ٢٥٢

عرض ونقد

٢١ ـ كتاب الدلائل للحسن بن البهلول ..... د. كمال السامرائي ٢٥٣ ـ ٢٥٥

٢٢ ـ قراءة في كتاب ـ فصول التماثيل في تباشير السرور ..... د. يونس أحمد السامرائي ٢٥٦ ـ ٢٦٨

٢٣ ـ ملاحظات على ما أنفرد به القراء ..... د. علي حسين البواب ٢٦٩ ـ ٢٧١

٢٤ ـ تصحيح كتاب التعريف لابي عمرو الداني ..... د. حسام النعيمي ٢٧٢ ـ ٢٨٠

مناقشات وإستدراكات

٢٥ ـ تعقيب على مفهوم التراث العلمي العربي ..... طاهر التميمي ٢٨١ ـ ٢٨٦

٢٦ ـ إستدراكات على (ببليوغرافيا عن الرحلات الى العراق) ..... سلمان هادي طعمة ٢٨٧

٢٧ ـ اخبار التراث العربي ..... اسامة ناصر النقشبندي ٢٨٨ ـ ٢٩٢

٢٨ ـ ندوات حول التراث ..... هدى شوكة بهنام ٢٩٣ ـ ٢٩٧

٢٩ ـ رسائل جامعية ٢٩٨

www.dorat-ghawas.com

الجانب العلمي
في كتاب الحيوان للجاحظ

دراسة
د. جليل ابو اللعيب

مديرية توظيف المزدوجات / الجمهورية العراقية

يطمح المرء أن يطبق على ما أورده الجاحظ عن الحيوانات في كتابه المنهج العلمي الحديث في الدراسات الحياتية وكذلك الطريقة العلمية في تقديم وعرض نتائج البحث العلمي اليوم.. الا إن هذا الطموح يُحمّل المؤلف فوق طاقة العصر والجيل الذي عاش فيه الجاحظ وكتب كتابه. ومع ذلك فإنني سوف أحاول أن أقدم:

١ـ المنهج العلمي الحديث في دراسات علوم الحياة..

٢ـ طريقة كتابة وتقديم نتائج البحث العلمي.

وبعد ذلك مقارنة نهج الجاحظ في علم الحيوان وكتابة وعرض معلوماته في كتابه «الحيوان».

أولاً: المنهج العلمي الحديث:

يسير المنهج العلمي حسب خطة دقيقة ومضبوطة وهي بأختصار تستخدم الملاحظة والتفسير والتنظير ثم التجربة. وفيما يلي تعريف مبسط بهذه الخطوات الاربعة:

١١ـ الملاحظات (Observations):

وهي القاعدة الاساسية في كل التفكير العلمي، يجب ان تكون الملاحظة مباشرة ودقيقة نزيهة وغير متحيزة بالمجمل، اي نظرة مسبقة بالنسبة للمعلومات والنتائج المستقاة من دون ان يتأثر الباحث بأراء مسبقة. الملاحظة الدقيقة تظهر صحتها عندما يتفق عدة اشخاص على نفس الملاحظات وان لم يصلوا بالضرورة الى نفس الاستنتاجات.

٢ـ التفسير او التعليل ((Interpretation)

هنا يحاول الباحث ان يقدم توضيحاً او تفسيراً للنتائج الملحوظة وعليه بالتالي ان يضع فرضية موفقة وتكون عادة عامة واوسع من النتائج التي أوحت بها الملاحظات. يبقى التفسير والفرضية موفقة حتى تثبت قيمتها او تنفيها الملاحظة المستمرة. قد يضع الباحث الفرضية منذ البدء وعليه ان يكون واضحاً بذلك.

٣ـ الحدس او التوقع (Predication)

يدعو المنهج العلمي الى التخمين او التوقع الذي يتوصل له الباحث من الفرضية وعلى اساس هذه التخمينات والتوقعات يخطط ويقوم ببعض التجارب لأختبار الفرضية موضوعة البحث. إذا أثبتت التجارب التوقعات فان الفرضية تقوى وترسخ. واذا لم تثبتها التجارب فعلى الباحث ان يحورها او يهملها كلياً. ان الاستنتاجات التي تؤيدها الملاحظة والتجارب تهيئ برهاناً لصحة وقيمة الفرضية الاصلية.

٤ـ التجريب (Experimentation):

يخطط الباحث ويصمم ويقوم بالتجارب لإختبار التخمينات والاستقراءات التي توصل لها من فرضية معينة.. فالتجارب تجرى للإجابة عن سؤال ملموس فالتجارب الوفيرة يعتمد على دقة ووضوح وضع السؤال وعلى تصميم التجربة للإجابة عليه. كل تجربة يجب ان يرافقها تجربة مقارنة تخضع لجميع العوامل الا ذلك الذي يتحرى الباحث عنه. اي ان تجربة

www.dorat-ghawas.com

المفاصلة وتجويبة المقارنة مشابهتان الى اقصى حد يمكن بالنسبة للفاصل المطلوب الاجابة عليه . يجب ان تكون التجويبة قابلة للإعادة والتكرار من قبل جميع العلماء الذين يستعملون نفس الجهاز للبحث والتجويبة . اذا أثبتت التجاوب صحة الفرضية فانها ترتقي الى مصاف النظريات والتي تحتاج الى المزيد من التجاوب ووضع التخصيصات والترقيمات .. كلها كانت النظرية أقرب الى الصحة . والنظرية التي تثبتها وتؤيدها التجاوب الكيفية وتسندها جميع الحقائق المتوفرة تصبح بالأخير قانوناً . في هذا المنهج العلمي كل قول لا يؤيده البرهان العلمي مشكوك فيه . الاشاعات والتطيرات والبرهان الجدلي .. الخ كلها غير علمية .

لنعد الآن ونتحرى في كتاب الحيوان ونرى حظ الجاحظ من هذا المنهج العلمي في دراساته عن الحيوان :

١١ ـ الملاحظة :

ان حظ الجاحظ من الملاحظة الصحيحة الاستقرائية العلمية وافر وبخصوص وقد امتاز بتسجيله من ملاحظات دقيقة في سلوك وطباع وعادات الحيوانات . في الحقيقة إنه نفسه يقول ان أحد مصادره في كتابه هي الملاحظة المباشرة بالذات . والكتاب مملوء بالمشاهدات والملاحظات الشخصية التي قام بها الجاحظ نفسه واثبتها بالكتاب . كما إنه استعان بملاحظات ومشاهدات غيره عن يثق بهم من العلماء الموثوق بهم . لكنه مع ذلك يتحفظ من نقد بعض ملاحظات الحيوانات ومظاهرها الخلوقية وعلاقاتها مع بعضها وتصرفاتها وحركاتها وطبائعها وتكاثرها بل وحتى فوائد كل هذه جلبت انتباهه وراح يلاحظها أدق الملاحظة ويثابر على ذلك ويستفسر ويسأل من غيره عن تلك الحيوانات التي لم تتواجد في محيطه .

٣٢ ـ التفسير والتعليل :

لم يفت الجاحظ ان يسجل التفسير والتعليل لبعض المظاهر التي لاحظها ومشاهدها عن الحيوانات وقد يكون في هذا الأمر قد جاء بأفضل ما وصل اليه تفكير متأخر .

هناك امثلة كثيرة (وكثيرة جداً) في كتاب الحيوان من التفسيرات التي يضعها الجاحظ للملاحظات التي سجلها وقد يكون كافياً ان أعدد قليلاً من هذه الامثلة للتدليل على ما أقول . من هذه الامثلة نراه قد لاحظ النمل الصغار وكيفية تجمعه على نقليات العذراء ومتابعتها وبعد ان يسجل مشاهداته نراه يضع التفسير فيقول عن النمل « وربما اكل الانسان الجراد وبعض ما يشبهه الجراد ، فيسقط من يده الواحدة او صدور الواحدة وليس يركد بقربه (قملة) ولا الم (والنمل) عهد في ذلك المتزل .. فلا يلبث ان تصل (قملة) فتصدمه تلك الجرادة فتروعها وتطول قلبها ونقلها وجوهها . فإذا اعجوبتها بعد ان بلغت منحدراً أمضت الى جحرها راجعة .. فلا يلبث ذلك الانسان ان يراها قد اقبلت وخلفها

www.dorat-ghawas.com

كالخيط الاسود الممدود حتى يتعاون عليها (الجرادة) فيحملها. فأول ذلك صدق الشم مما لايشم الانسان الجائع ثم بُعد الهمة والجرأة على نقل شيْ في وزن جسمها مائة مرة واكثر» فهو يفسر ملاحظاته عن عمل النمل وتجمعه على الغذاء وحمله الى جحره بشدة حاسة الشم وكذلك باستمرار العمل والكد.

ومثل آخر عن تفسير الملاحظات يورده عن الطيور المهاجرة «التي خرجت تقطع الصحارى والبراري الجزائر والفيافي والبحار حتى تصير الينا في كل عام. فان قلت انها ليست تخرج الينا على ولاهداية ولا دلالة ولاعلى امارة وعلامة وانما هربت من الثلوج لبرد الشديد. وعلمت انها تحتاج الى الطعام وان الثلج قد ألبس ذلك العالم فخرجت هاربة فلا تزال في هروبها الى ان تصادف ارضاً خصبة دافئة فتقيم عند ادنى ما تجد».

وخُذ يومنا هذا يقدّم العلم هذا التفسير على أنه أحد اسباب هجرة الطيور.

ومثل آخر هو تفسيره للألوان المختلفة التي تظهر بها قملة الرأس وقد لاحظ أن الوانها تختلف ثم فسر ذلك بأنه يعتمد على لون الشعر في الرأس، فهو يقول «القملة في رأس الاسود الشعر سوداء فاذا كانت في رأس الخضب بالحمرة كانت حمراء».

ومثل رابع هو تعليله سقوط مطر من الضفادع وسمك الشبوط «واما الذي زعم انهم أمطروا الشبوط، فانه لما ظن ان الضفادع التي تصاب بعقب المطر بحيث لاماء ولا وحل ولا عين ولا شريعة فإنهم ربما رأوها وسط الدّو والدهماء والصّمان - ولم يشك انها كانت في السحاب وعلم إنهاتكون في الانهار ومنابع المياه وليس ذلك من الذكر ولاانثى، قاس على ذلك الظن السمك ثم جسر فجعل السمك شبوطاً».

فهو قد فسّر ملاحظة الناس عن نزول السمك بالمطر كما رأوا الضفادع بالمطر. وانهم ذهبوا الى ابعد من هذه المقارنة فقالوا ان السمك شبوط وهو يسخر من ذلك.

ومثل آخرجميل عن تعليله لملاحظات عن انتشار الذباب حيث يعزوه الى «عفن التربة وسخن اهواء».

وتفسيره لعدم ظهور الخفاش نهاراً ولا في حلكة الظلام - وان كان غير علمي بكليهما - ولكنه يعطي تعليلاً عن كل حال «لايظهر في الظلمة لأنها تكون غامرة لضياع بصره، غالبة لمقدار شعاع ناظره، ولايظهر (الخفاش) نهاراً لأن بصره لضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار ولان الشيْ المتلألئ ضار لعيون معروفة بحدة البصر ولأن شعاع الشمس بمخالفة مخرج اصوله وذهابه يكون رادعاً لشعاع ناظره ومفرغاً».

كان الشائع في ذلك الوقت ان العين ترى لأن النور يخرج منها ليسقط على الشيْ المرئي وهذا طبعاً امر مغلوط بقي لكي يبرهن على خطئه عربي آخر - الحسن بن الهيثم - ليضع الفكرة الصحيحة القائلة ان النور من الشيْ المرئي يسقط على شبكية العين فتحس به. هناك العشرات، بل المئات من الملاحظات الدقيقة والتوجهات اللطيفة والتعليلات العلمية او غير العلمية في ابسط الامور وأدقها. وقد سجّل الجاحظ الكثير من الآراء والملاحظات التي أبداها غيره من الناس والعلماء سواء أكانت من العامة او الشعراء او الفلاسفة. والجميل عنده إنه لايقبل هذه الآراء والملاحظات على علاّتها بل يعقب عليها ان كانت صحيحة او غير صحيحة وقد يقترح المشاهدات والملاحظات أو بل وحتى التجارب للتثبت منها والتدليل على صحتها او خطئها.

٣ - الخطوة الثالثة في المنهج العلمي في علوم الحياة هي الحدس والتوقعات وصياغة الفرضيات اوحتى النظريات - بعد مرحلتي الملاحظة والتعليل، ان اقرب ما وجدته هذه المرحلة من المنهج العلمي عند الجاحظ هو اقتراحه ان يقوم باحث ما بمسح احصائي (او تجربة مشاهدات) لكي يبرهن او يدحض آراء العلماء الذين يقولون «ان عرق الخال أنزع من عرق العم وان نصيب الامهات في الاولاد اكثر». فالجاحظ يضع فرضية او تخمين «ان اكثر ما تلد الامهات الاناث» ولكي يبرهن على «حق ذلك من باطله» يقترح بأن يقوم الباحث بإحصاء سكان عشر دور عن يمين داره وعشر عن شماله وعشر من الخلف وعشر من الامام» لكي يظهر ايهما اكثر، رجالهم ام نساؤهم.

وفي محل آخر يورد الملاحظات التالية: «يقول الناس إن في حمص طلسماً يمنع العقارب من أن تعيش فيها» هذا رأي لايقبله الجاحظ ويضع تخمين او فرضية وجود حيوان مضاد للعقرب فيمنعها من أن تعيش في هذا البلد (حمص) ولكنه مع الاسف لم يقم ببحث يؤيد هذه الفرضية كمافعل بالنسبة الى زعم الناس إن الأفاعي تكره ريح الذئاب والشيح فلم يصدق هذا الزعم ولكي يتأكد من القول بنفسه فانه القىٰ على راس الافاعي. وأنفها من

www.dorat-ghawas.com

السذاب ماغمرها فلم يجد إن قول الناس صحيحاً وفي مثل آخر يفترض ان السواد والبياض (في حرة بني سليم في عالية نجد) هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قرب وبعد الشمس وشدة حرّها ولينها» هذه فرضية علمية جميلة عن تأثير البيئة في لون البشرة ولكنها كانت تحتاج الى البرهان والتجربة والاحصاء لكي تثبت وهذا ما لم يقم به الجاحظ. لم يكن من السهل العثور في كتاب الحيوان على فرضيات او تخمينات وضعها الجاحظ ثم صمم تجربة ما للبرهنة عليها . نعم إنه لاحظ وشاهد وسجل هذه الملاحظات وأتى ببعض التفسير والتعليل لها ثم أجرى التجارب ولكن تجاربه كلها للمشاهدة والاطلاع، فأنه لم يضع فرضية ثم اجرى تجربة للبرهان على هذه الفرضية بل إنه قام بالتجارب لكي يشاهد فقط. فهو يسقي الحيوانات الخمر ليرصد نتائج ذلك لا لأنه وضع فرضية ان الحيوانات تتأثر بالكحول مثلما يتأثر الانسان مثلاً. وكذلك اجرى تجاربه على ذكر النعام لكي يشاهد إذا كان صحيحاً إنه قادر على ابتلاع الجمر والحجارة المحماة والحديد والزجاج والمسامير، فإنه لم يفترض وجود عضو او عملية فسلجية معينة يستعملها الظليم للحماية من مضار هذه العمليات. ان اكثر ما دفع الجاحظ الى بحوث المشاهدة Obser-vational Research هو شكه في كل خبر يصعب قبوله عقلياً اوانه بعيد عن الطبيعة ولذلك راح يقوم بالتحريات بالمشاهدات مثل التشريح وعمل الاحصائيات واعطاء المواد الكيمياوية لكي يثبت من صحة او خطل تلك الاخبار. أنه كان وراء الحق والصدق في مشاهداته وفي نتائج الابحاث والتحريات التي أجراها كائناً ما كانت ،مؤيدة للخبر الذي شك فيه او مؤيدة له. ولامانع لديه من الإستدلال ببحوث ومشاهدات غيره في سبيل التدليل على الخطأ والصواب إذا كان هذا الغير متمكناً ويركن اليه علمياً.

٤ ـ يقودنا هذا الى المرحلة الاخيرة من المنهج العلمي في علوم الحياة واقصد بها التجربة . وللجاحظ باع طويل ويد طولى في التجارب لا يكاد باحث ممن تكلم عن تراث الجاحظ الآ وأبرز هذه الحقيقة وهي بحد ذاتها تقدم كبير بالعلم ان يحاول الباحث ان يتأكد من المشاهدات والملاحظات والروايات باجراء بعض التجارب. تجارب الجاحظ وان كانت من نوع بحث وتجارب المشاهدات الآ انها تدل على اتجاه علمي في ذلك العصر السحيق بالنسبة للعلوم. والتجارب التي قام بها الجاحظ كثيرة وكثيرة جدا، اشير فيما يلي الى ما تمكنت العثور عليه بعجالتي في قراءة الكتاب الضخم الفخم:

١ ـ لقد قام بقطع طائفة من الاعضاء ليرى فيما اذا تعود فتنمو (عملية الإخلاف Regenaration).

٢ ـ اعطى الحيوانات ووضع الانواع المختلفة من السموم لمشاهدة تأثيرها عليها، السذاب على الحيات يبرهن على خطأ ملاحظات العامة بها أنها تكره ريحه.

٣ ـ ذبح الحيوانات وفتح بطونها وفتش في جوفها لمشاهدة الاحشاء وعلاقتها مع بعضها ومواضعها.

٤ ـ دفن بعض الحيوانات في بعض النباتات اولاً ثم اعادها لمحلات تكاثرها الاصلي ليعرف حركاتها.

٥ ـ تذوّق اجزاءاً من الحيوانات للتعرف على طعمها.

٦ ـ فتح رحم بعض الحيوانات لمعرفة عدد الجراء التي تحملها.

٧ ـ شاهد فعاليات الحيوانات المتضادة من عراك وتقاتل.

٨ ـ استعمل المواد الكيمياوية على الحيوانات ليتعرف على تأثيراتها عليها مثل الكحول والسذاب والشبح والكبريت.

٩ ـ أشار الى تجربة مقارنة بين توأمين أخصى أحدهما وترك الآخر لمشاهدة الفروق في التصرف والسلوك والذكاء و بين الاثنين المتشابهين إلّا في الاخصاء.

١٠ ـ أشار الى تجربة حبس الكلب واستعمال السكين واللحم من وراء الباب لكي يتعرف على ذكاء الكلب.

وهناك لاشك الكثير من امثال هذه البحوث والتجارب التي قام هو بنفسه بها أو قام بها غيره. وانه لاينسى ان يكون لبعض تجاربه مقارنة ومعاملة ـ مثل تجربة إخصاء التوأمين ـ كما انه قد يكرر التجربة للتأكد من النتائج كما جرى بالنسبة للتجربة التي جرت لمعرفة ذكاء الكلب.

هذه مقارنة سريعة بين المنهج العلمي الحديث في الدراسات الحياتية والجانب العلمي في كتاب الحيوان وذلك لكي نتمكن من اعطاء الجاحظ حقه واصالته في هذا المنهج العلمي وكم تتمشى دراساته مع المنهج وكم يخالفها فيما أورده من اقوال وآراء وتجارب وتعليل وتفسير للملاحظات والمشاهدات.

ثانياً: طريقة كتابة وتقديم نتائج البحث العلمي

ان استعراض الجانب العلمي في كتاب الحيوان لايتم مالم

www.dorat-ghawas.com

تفويض الى الطريقة التي قدم وعرض بها الجاحظ معلوماته وتلاقح ملاحظاته وتجاربه او ما تسميه في اللغة الحاضر «كتابة البحث العلمي». بالرغم من ان عرض الجاحظ لكتابه جاء بالاسلوب الصحافي اكثر منه في اسلوب البحث العلمي، ولكن هذا لم يكن الجاحظ بعيداً عن كتابة البحث العلمي الحديث. ان كتابة البحث العلمي الحديث تشمل على العناصر:

١ ـ عنوان البحث

٢ ـ مقدمة في اسباب إجراء البحث

٣ ـ مراجعة المصادر والمراجع في البحوث المقاربة

٤ ـ عرض المواد والطريقة.

٥ ـ تقديم النتائج.

٦ ـ مناقشة النتائج ومقارنتها مع نتائج البحوث السابقة..

٧ ـ تقديم الشكر للمساعدين في اجراء البحث.

٨ ـ ثبت المصادر والمراجع.

فاذا رجعنا الى كتاب الحيوان، فاننا نجد ان هناك عنواناً واضحاً للكتاب، ولكن مع الاسف اضاع اسلوب الجاحظ الى حد كبير قيمة هذا العنوان ودلالته على محتويات الكتاب، بحيث جاء الكتاب ليس كتاب علم بل كتاب أدب ومنطق وفلسفة وتدين وقومية وتاريخ وتربية.. كل شيء بالاضافة الى الحيوان والذي ضاعت المعلومات الخاصة به بين هذه الكتل من الحديث والشعر والقصص. فالجاحظ لم يوفق في حصر كتابه على المعلومات الخاصة بالحيوانات كما فعل الدميري (حياة الحيوان الكبرى) او القزويني (عجائب المخلوقات) او حتى أرسطو الذي سبقه بقرون. ان الحجة التي قدمها الجاحظ ـ وهو نفسه لم يكن قانعاً بها فزاح يعتذر في ثنايا الفواتح الى كتابه «ليدفع عنه الملل فانها ليست مقنعة وان طريقة العرض ادت الى الفوضى والى بعثرة المعلومات الكثيرة والاصيلة والتي حفظها لنا من الاجيال السابقة بتدوينها.

ان عمل يوسف له أن يحشي الجاحظ كتابه في امور بعيدة كل البعد عن منطوق العنوان «الحيوان» بحيث جعله يعطي الانطباع ـ في اللحظات الاولى وقبل الدراسة المستفيضة الدقيقة ـ من ان كتاب الحيوان هو عن كل شيء الا الحيوان، فلهذا تقرأ الصفحات تلو الصفحات حتى تعثر على معلومات تخص الحيوان. لو بقي الجاحظ مع الحيوان للدل على عظمة علمية وقابلية فائقة ولحاز قصب السبق.. المهم ذلك اننا ان نكشف عن هذه العبقرية بالطريقة الصعبة.. تدل الكتب والمقالات التي تركها الجاحظ ووصلت الينا عن انه يكتب عن وفي كل شيء. فهو فيلسوف وأديب واجتماعي ونفساني وسياسي وموزرخ وعالم بالحيوان وعالم بالنبات تلمذ وأثر وولد وجست وشاعر ومهندس وطبيب. وتجمهد صاحب مذهب في الذين، وانك تجد جميع هذه الشخصيات في كتاب الحيوان وعليك ان تكشف عن العالم في الحيوان. وتزيد كم كان الجاحظ عالماً بالنسبة لعلم الحيوان كما نعرفه الآن. حتى في ديباجة الكتاب، لم يكن الجاحظ مثل غيره من المؤلفين العرب والمسلمين، فقد افتتح الكتاب ليس بالحمد لله والصلاة والسلام على الانبياء والمرسلين ولا بالدعاء لنفسه ولطالب الغفران... الخ. الطريقة التقليدية ـ بل بتوجيه الكلام الى شخص مخاطب مجهول ـ والدعاء له. اما بالنسبة الى الاسباب التي أجرى الجاحظ من أجلها الدراسات وكتب الكتاب «هذا الكتاب موعظة وتقويم وتفقه وتنبيه وادوات» وبالاضافة الى هذا فان الاستاذ صموئيل عبود الشهيد يعدد اسباباً اخرى لتأليف الكتاب منها اظهار حكمة الله العجيبة. وقد أشرنا لها آنفاً. وقدرة الجاحظ اللغوية ومنها الصراع الحادين البيئات المختلفة المعروفة في العراق وحمل من الحيوانات رموزاً لابداء وجهة نظر كل فئة، ومنها حب الجاحظ للشهرة وليشعر علمه وثقافته بين الناس واخيراً تقليد العدد الوفير من المؤلفين العرب الذين وضعوا كتباً في الحيوان قبل الجاحظ. ان عنصر السبب في البحث والتأليف قد تتوفر في الكتابة سواء أكان واحداً من هذه الاسباب او الاسباب كلها مجتمعة. اما مراجعة المصادر والمراجع القديمة فان الجاحظ وان لم يعرضها بشكل مراجعة وبالصورة التي تظهر بها اليوم، فانه والحق يقال قد كان أميناً في ذكر مصادره ومراجعه لاسيما عندما يذكر حقيقة معينة.

لقد راجع ودرس الجاحظ مصادراً كثيرة مما يدل على جهوده الواسعة في هذا المضمار. فالقرآن الكريم والشعر العربي والادب العربي والفقه الاسلامي وكتب الحيوان اليونانية والفارسية والهندية واليونانية التي سبقته.. كلها اجلاء ذكرها في المتن. هذا بالاضافة الى الرواية المباشرة. مع ذلك فان الجاحظ مع الاسف اعتمد مصادراً غير علمية واستند عليها كثيراً او هي اشعار وأقوال وأمثال الاولين. فهذه مهما كانت مقدسة وعزيزة، إلا أنها كثيراً ما تكون غير علمي ولا يمكن الاعتماد عليه في مجتمعة ومناقشة علم الحيوان بها، مثالها عمل الجاحظ لمجمع آراء ارسطو.. لقد قدم الجاحظ سبباً في اعتماده على الشعر والامثال، ولكنه غير مقنع بالنسبة للعلم، وهذا السبب هو ان

www.dorat-ghawas.com

كانوا (الأعراب) لم يعوفوا اشكال ما أحتيج اليه منها (الحيوانات) من جهة الفعلية والفلاحية .. الخ . ولكن هذه الاجناس الكثيرة وما كان منها سبع او بهيمة او مشترك خلق فانما هي مبثوثة في بلاد الوحش من صحراء او وادٍ او غيضة او رملة او جبل وهي في منازلهم ومعاشهم فقد نزلوا اكل ترى بينها واقاموا معها وهم اقل من بين الناس وحشي أو أشباه وحش .. وربما بلي كثيراً مما يتناولون بالتناسب والمخالطة وبالتلذذ واللسع والقضم والاكل ، فتفرجت بهم الحاجة الى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل وحال المجني عليه والمقتول وكيف الطلب والهرب وكيف الدلاء واللواء لطول الحاجة لطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالدلاء واللواء » .

هو يسأل الجاحظ يعطي الفضل لمن قبله ممن كتب أو قال شيئاً عن الحيوان ولا نتوقع ان يذكر المصدر بالاسم ويتابع التأليف كله هي الحالة الآن بل ينقل الرواية عنه او اقوال المؤلف نفسه مبلشرة دون ذكر الكتب إلا اللهم بالنسبة لأرسطو كما انه لم يختم كتابه بثبت المصادر إذ ان هذه عادة وطريقة حديثة . وبالنسبة للذكر الطريقة والمواد المستعملة في التجارب وتلخيصها فإنه يذكر المواد والطريقة والنتائج ولكن بطريقة مخصوصة وبدائية ، مثلاً ويقتل (النمل) بأن يُصب في أفواه بيوتها الفطران والكبريت الاصفر . ويُدس في أفواههم الشعير . وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً . ففي هذا الغرض المقتضب على ذكر الطريقة والمواد والنتائج للتجربة . فهو يستعمل النمل وبيوته والفطران والكبريت الاصفر والشعير ، ويصب ويضع هذه المواد في أفواه البيوت ، ثم يذكر ان النتيجة كانت سالبة . وفي تجربة معروفة لذكاء الكلب ، كانت هنالك الحيوانات (الكلب) والبيت والباب والمكعبين وقطع اللحم والقصاب ... ثم كانت هنالك النتيجة . حين أحدّ صديق الجاحظ سكيناً يكعبن ليقطع اللحم ، حين عاد الطباخ من السوق ومعه اللحم ، قام الكلب وراء فتح الباب ولكنه حين فعل ذلك عندنا العشي ، لم يحرك الكلب ساكناً .

ان أتطفف ملجلجاء في كتابه الحيوان ، بالاضافة الى ذكر الحيوانات وعاداتها وتاريخها الطبيعي وما الى ذلك ، هو مناقشته لآراء الآخرين والاعتراف بفضلهم اذا كانت تجاربه ومعلوماته تؤيد اقوالهم او تنقدها . واحياناً بسخرية اذا كانت لا تتفق مع التجربة والمعقول والمنطق . فقد ناقش ارسطو وزراشت واقوال بعض العلماء العرب والمسلمين .

ان كتاب ارسطو عن الحيوان بالرغم من قدمه جاء اكثر تنظيماً وأحسن عرضاً وبدون حشو وهزل وشعر وادب .. الخ فهو أنظم وأكثر علمية من الجاحظ . نناقش الجاحظ قول ارسطو من ان ولد الفيل يخرج من بطن امه مستعيناً الانسان لطول مكثه في بطنها ، ونناقش قوله في أن ثوراً وثب ، بعد ان أُخصي ، على بقرة فلجلجها . ونناقش قول ارسطو في أن العقرب علق وحافي لأولاده ، وغير ذلك كثير من المناقشات التي نناقش بها ارسطو .

فحسب قول الأستاذ عبد المنعم الحفاجي ، اشار الجاحظ ٣٦٨ مرة الى ارسطو ، بعضها مخالفاً له وبعضها مكبراً له . وهو لا يتورع من نقد الآخرين ، نقداً لاذعاً .. « ولو كتموا يسرون الامور مع عللها وبراهينها خفت المؤونة ولكن اكثر الروايات مجردة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الاحتجاج عن البرهان » وفي محل آخر يقول « والصدور تضيق بالرد على اصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » . ويقول في محل ثالث « هل سمعت بحجة قط او بحيلة او بوصوكة يسع مؤنة هذا الاغتلال » .

ولكنه في الوقت نفسه لا يقلل من أهمية آراء الآخرين ويعتبرها ارثاً تتوارثه الاجيال والامم والبلدان فهو يقول « وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونان وحويت آداب الفرس فبعضها إزدادت حسناً وبعضها مد إنتقص شيئاً . وقد نقلت هذه الكتب من امة الى امة ومن قرية الى قرية ومن لسان الى لسان حتى انتهت الينا وكل آخر من ورثها ونظر فيها » .

اما بالنسبة للذكر فانه يشيد في متن الكتاب بمن ساعده في الملاحظات او التجارب مثل النظام ، وسهل بن هارون ومحمد بن الجهم وموسى الحمام واخوانه والقوابل وغيرهم انه يكون اكثر وضوحاً بالاشادة إذا كانت المعونة من المعتزلة . غني عن الذكر ان الجاحظ لم يضع ثبتاً بالمصادر التي رجع لها . ولكن أين له أن يقوم بذلك وقد عاش بعصر غير عصرنا واتبع نهجاً غير نهجنا .

وأود ان أكون قد وفقت في المقارنة بين منهج الجاحظ في دراسته للحيوان وطريقة كتابته للكتاب وبين الطرق الحديثة . لا أضير على الجاحظ إذا كان قد قصّر في بعض هذه الجوانب ، بل له كل التقدير والاحترام إنه كان رائداً وبالرغم من ان كتابه فقد كثيراً من قيمته العلمية بعد تقدم الزمن وظهور الطرق الحديثة في البحث والدراسة ولكنه لا يزال رائداً في علم الحيوان بعد ان مضى على تأليفه ما يقرب من ١١٣٠٠٠ سنة او حوالي لها . وانا نفخر بهذا التراث .

www.dorat-ghawas.com

المصادر:

١ ـ حميد موراني وعبدالحليم منتصر. ١٩٧٤
تراجمات في تاريخ العلوم عند العرب. مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر. جامعة الموصل. ص٧٨.

٢ ـ عبد الحليم منتصر. ١٩٦٦
تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. المكتبة العلمية. دار المعارف. مصر ص٢١٢ ـ ٢١٣.

٣ ـ مكيسة نجيب عبدالرحمن. ١٩٧٧
دراسات في تاريخ العلوم عند العرب. جامعة الموصل. ص ٣٥٠ ـ ٣٥١

٤ ـ عمر فروخ. ١٩٧٠
تاريخ العلوم عند العرب. دار العلم للملايين. بيروت. ص٢٦٥ ـ ٢٦٨

٥ ـ قدري حافظ طوقان. ١٩٧٠
العلم مع الحياة. مكتبة المعارف. بيروت. ص ١٢٠ ـ ١٢٢

٦ ـ قدري حافظ طوقان. ١٩٦٠
العلوم عند العرب. مشروع الألف كتاب. مكتبة مصر. القاهرة. ص ٣٥ وص ١١٩.

٧ ـ محمد عبدالمنعم الخفاجي. ١٩٧٣
ابو عثمان الجاحظ. دار الكتاب اللبناني ص ١٧١ ـ ١٨١.

٨ ـ صموئيل عبد الشهيد. ١٩٧٥
الروح العلمية عند الجاحظ. دار الكتاب اللبناني. بيروت، ٨٣ صفحة.

٩ـ ارسطو طاليس. ١٩٧٨
اجزاء الحيوان. ترجمة يوحنا بن البطريق. حققه وشرحه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت. ٢٨٠ صفحة.

١٠ ـ ارسطو طاليس. ١٩٧٧
طباع الحيوان. ترجمة يوحنا بن البطريق. حققه وشرحه وقدمه له د.عبدالرحمن بدوي. وكالة المطبوعات. الكويت الطبعة الاولى. صفحة ٥٦٣.

١١ ـ الجاحظ ابو عمرو. ١٩٦٨
كتاب الحيوان للجاحظ. حققه وقدم له فوزي عطوي. مكتبة محمد حسين النوري، دمشق ومكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني، بيروت. ٧ اجزاء بمجلدين.

١٢ ـ عادل محمد علي ١٩٧٨.
الجاحظ وريادة البحث العلمي. ١ ـ النزع العلمي في كتاب الحيوان مجلة المورد، ٧ (٤): ٢٥ ـ ٣٣، بغداد.

٢ ـ وصف الحيوان بين ارسطو والجاحظ. المورد ٧ (٤): ٣٤ ـ ٤١.

١٣ ـ احمد عبد زيدان. ١٩٧٨
الحيوان عند الجاحظ. المورد، ٧ (٤): ٥٨ ـ ٧١ بغداد.

١٤ ـ عبدالسلام محمد هارون. بلاتاريخ
تهذيب الحيوان للجاحظ. جزء أول وثاني. سلسلة في الادب والنقد، ٤و٥، مكتبة نهضة مصر. الفجالة. مصر. ٣١٠ صفحة.

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

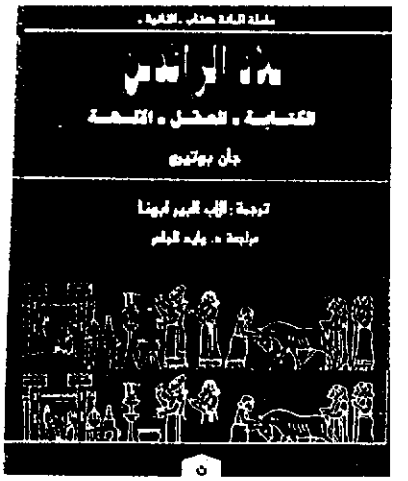

www.dorat-ghawas.com